التاريخ: 24-11-2003 رقم العدد: 21798 الصفحة: 17 العمود: 1

العنوان: أربعة عوامل لجعل القضية العراقية هماً اقليمياً[2]

الكاتب: سلامة غسان

المترجم: حداد جمانة

الحلقة الثانية الأخيرة من النص الذي قدمه الدكتور غسان سلامة في مؤتمر حول النفط في لندن في 4 تشرين الجاري.

لقد اعتبرت هذه الاحتمالات الاقليمية التي تقدمها الأمم المتحدة كإلهاء عن المهمة الاساسية في افضل الاحوال، وفي اسوأها كتدخل محتمل غير مرحب به من جانب جيران العراق. فقد كانت الولايات المتحدة تعتبر العراق جزيرة يمكنها ان تعيد صوغها في شكل مستقل عما يحوطها. وحين اعترض الآخرون، تم تهديدهم بالعقاب على تدخلهم غير المقبول. ورغم ان الولايات المتحدة كانت محقة في اثارة الموضوع، الا انه من السذاجة ان تظن ان المنع يكفي لحل هذه المشكلة و غيرها. وباتت قابلية هذه السياسة للتطبيق شبه معدومة في ضوء واقع ان الولايات المتحدة برهنت عجزها عن مراقبة الحدود العراقية على نحو فاعل، وهي مهمة ضخمة في وقت كانت القوات الاميركية منهمكة في معظمها في محاولة القاء القبض على ضباط النظام السابق او في قمع حركة المقاومة الناشئة.

ان هذا التناقض يفرض نفسه: اذ لا يمكنكم تهديد بلدان المنطقة بتغيير الانظمة، وان تتوقعوا منها البقاء على الحياد، لا بل التعاون معكم في جهودكم لاحلال الاستقرار في العراق. كم عدد المسؤولين الاميركيين الذين قالوا قبل الحرب ان الهدف منها هو اعادة صوغ المنطقة بأكملها؟ وان العراق ما هو الا البداية وسوف تتبعه سريعاً دول اخرى مثل ايران وسوريا او السعودية؟ ان خطاب تغيير النظام وضع جيران العراق في حال دفاعية، ودفعهم الى الارتماء في احضان واشنطن او الى اتخاذ خطوات اقل جذرية تهدف الى تهدئة واشنطن، في انتظار اللحظة التي ستصبح فيها الولايات المتحدة اكثر واقعية في تقويمها الاثمان والمكاسب الناتجة من القيام بعمليات تغيير كاسحة للانظمة في جميع انحاء الشرق الاوسط. طبعاً تشجّع قادة المنطقة بسبب المعارضة المتزايدة للاحتلال الاميركي داخل العراق (البعض طبعاً شجّع على ذلك، شفهياً وان لم يكن فعلياً) وايضاً بسبب الانقسامات المستمرة بين ضفتي الاطلسي. وكان يجب على القادة ان يتعاملوا كذلك مع واقع ان القوة المحتلة في العراق كانت حليفة اسرائيل الرئيسية، وان اريل شارون يملك اصدقاء جيدين في واشنطن.

لم يفت العرب - قادة ومعارضة على السواء - التقارب بين المشكلتين العراقية والفلسطينية، وذلك طبعاً لم يشجعهم على ان يكونوا متجاوبين.

ان عدم قابلية تلك السياسة للتطبيق باتت واضحة تدريجاً. وسمح الضباط الاميركيون في الشمال للتجار المحليين بعقد علاقات تجارية مع سوريا و تركيا. وطلبت الولايات المتحدة من السعوديين ومن بلدان الخليج الاخرى المساهمة مالياً في اعادة بناء العراق. وطلب من سوريا التعاون في الحرب ضد الارهاب، وحتى ايران برهنت انها أهم من ان يتم التعامل معها بخفة، خصوصاً بعد تعاطيها الحكيم مع المسألة النووية. ويبدو ان الولايات المتحدة تتبع اليوم مقاربة اكثر واقعية، وهو امر مستحسن ولو جاء متأخراً.

ثمة اربعة عوامل مهمة تدفع الى جعل القضية العراقية هما اقليمياً:

اولاً: ادراك متزايد من جانب ضباط الجيش الاميركي بأنه ثمة حاجة الى التعاون مع جيران العراق.

ثانياً :خيبة الأمل من الولايات المتحدة تدفع عدداً كبيراً من احزاب العراق داخل المجلس الحاكم وخارجه الى طلب الاستشارة والعون من بلدان المنطقة.

ثالثاً :التسوية (الموقتة ربما) للنزاع بين ايران ووكالة الطاقة الذرية الدولية التابعة للأمم المتحدة. لقد خفف المسؤولون الاميركيون من حدة خطابهم ازاء ايران، في حين تبدو طهران اكثر تعاوناً في ما يتعلق بالمسألة النووية، وربما اكثر صرامة في التعاطي مع "القاعدة" و"طالبان."

رابعاً :المعارضة الواسعة النطاق لدخول القوات التركية الى العراق. فحتى اصدقاء اميركا المقرّبون في المجلس الحاكم كانوا يعارضون هذا الدخول، أكانت معارضتهم لاسباب عرقية او طائفية. وقد أبدت دول اخرى الموقف نفسه، اقتناعاً منها بأن الانتشار العسكري التركي في العراق قد يغذّي ميلاً عاماً نحو التدخل العسكري الاقليمي، اي شكلاً من "اللبننة" (انطلاقاً من تجربة لبنان على هذا الصعيد .(

فما ان يُسمح لدولة مجاورة بالدخول، سوف يتشجّع آخرون على فعل الامر نفسه. وقد كانت الرسالة واضحة في دمشق: العراق اكثر اهمية او اكثر تهديداً لجيرانه من ان تُترك مهمة اعادة بنائه لاميركا وحدها.

قد يسأل الواقعيون الاميركيون: لمَ لا؟ لكن الواقعيين ليسوا هم اولئك الذين دعوا الى الاجتياح اصلاً. ان مشكلة العراق تكمن تحديداً في ان اولئك الذين بدأوا الحرب أرادوها ان تكون الخطوة الاولى من اعادة تنظيم اقليمية شاملة، سوف يتحول فيها الاطراف الذين يتم اللجوء الى مساعدتهم الآن، الى اهداف تالية في حملة الديموقراطية الشهيرة، بكل ما تستتبعها هذه الحملة من تغييرات في الانظمة. ولن يكون سهلاً على واضعي ايديولوجيات ادارة بوش الانتقال من تلك الاهداف الواسعة النطاق الى سياسة تهدئة فاعلة.

ان التحالف يعمد الآن، وإن على مضض، الى تصحيح بعض اخطائه الاكثر فداحة، مفسحاً امام عودة اعضاء من الجيش القديم او معيداً إدخال بعثيين بارزين الى الادارة المدنية. كذلك بات تسليح اجهزة الشرطة مقبولاً الآن، وأنجز عدد من الاشغال العامة،

على غرار اعادة تأهيل المدارس، ولم يعد توزيع السلطة يشكو القدر نفسه من الخلل الذي كان يشكوه صيفاً. ولكن في حين يمكن رصد مؤشرات التحسّن هذه، باتت المقاومة افضل تنسيقاً واحترافية وجرأة. وبات رجال الدين البارزون في النجف يظهرون موقفاً اقل صبراً وأكثر انتقاداً .اما عدد الجنود الاميركيين الذين توفوا خلال الاسبوعين الاخيرين، فيفوق عدد اولئك الذين سقطوا خلال الاشهر الثلاثة الاخيرة. نعم اذاً، ثمة سباق سريع بين دولة عراقية ذات صياغة وسيطرة محض اميركيتين، وحال من الفوضى العارمة .وفي عمق قلوبهم، غالبية العراقيين ومعظم قادة الشرق الاوسط لا يمكن ان يكونوا راضين عن اي من هاتين الطريقين. ومن هنا هذه الاقتراحات العشرة المتواضعة الهادفة الى ايجاد طريق ثالثة.

ترجمة جمانة حداد

مستشار سابق لرئيس بعثة الأمم المتحدة في العراق